الحلقة الحادية والعشرون

(1) (عودة علي باشا الى استنبول لاصطحاب ابنته وأولادها الـى بيروت.. أم مراد وشقيقاته الثلاث يأتين لزيارة شهربان قبـل السفر)

أم مراد: ان أولاد مراد هم شرعا من حقي يا شهربان!

شهربان: (غاضبة) ان كنت تخشين أن أتزوج أحدا غير مراد فانـك تهذين.. لن يكون في حياتي الاّ رجل واحد هـو مـراد.. وأريـد أن أكرس عمري لتربية أبنائه..

أم مراد: أنت ياابنتي شابة لم تتجاوزي الثلاثين من العمر..

شهربان: ليس لك أن تقرري مصير أبنائي الاّ في حالة واحـدة.. ان تزوجت رجلا غير مراد.. ثقي أنني لن أفعل هذا أبدا حتى لا تكـون لك علي حجة قط..

أم مراد: ان كنت واثقة من قرارك هذا، فلماذا لا تنتقلين الى بيتي مع أولادك فنرعاهم سويا معا؟.. لقد حرمتني أحفادي طوال حياة مـراد ولن أصمت بعد الآن عن حقي فيهم..

شهربان: أنا لم أحرمك من أحفادك.. كانوا يزورونـك كـل أسـبوع ويحملون لك الحب والتقدير.. انك أفضل حالا من خالتي أم بهجـت التي لا يحمل لها حفيداها عاطفة حب ولا احترام..

أم مراد: لماذا تربي خالتك إبنك عليا؟ أليس من حقي أنـا أن أفعـل ذلك؟ فأنا أوثق صلة بأولادك منها.. أنا جدتهم وليست خالتك.. والآن تحوم حولك تريد أن تزوجك إبنها بعد أن مات مراد.. أتحـسبينني لا ألاحظ ذلك؟

شهربان: أرجوك لا تهينيني في بيتي.. أنا لم أحب أحدا مـن أبنـاء خالتي.. أنا لم أحب الاّ رجلا واحدا هو مراد.. تعاهدت معـه علـى الزواج قبل سفره الى ألمانيا، وبقينا على العهد حتى عاد.. ان أمـي نفسها لم تدر بهذا الحب الكبير الذي جمع بيني وبين مراد.. والـدي وحده كان موضع ثقتي وشجعني عليه، كان يحبه كولده وهـو الـذي أرسله للدراسة في ألمانيا، وأنقذه من سجن حلب.. وأحب أولاد مراد ووفّر لهم في هذا القصر كل العناية والتربية ممـا لا يتـوفر لأبنـاء السلطان نفسه من التربية والإستقامة.. ان والدي هو جد أولاد مـراد الذي ربى ابنته تربية مثالية لتكون أما لهؤلاء الأولاد.. أما والد مراد

فكان متوفيا، ولهذا رعى والدي الأبناء الذين أنجبهم مراد مـن ابنتـه الوحيدة شهربان، وأتاح لهم الفرص لنموهم ورعايتهم، فهـو رجـل، ورجل له مكانته المرموقة في المجتمع، وتربـى الأولاد فـي كنفـه ليكونوا رجالا في المستقبل.. وكنت راضية بهذا الوضع طوال عشرة الأعوام الماضية، فما بالك اليوم تتحدثين عن حقوقك في حـضانتهم.. وعن الشرع الذي يقف في جانبك؟ (يدخل علي باشا فيشاهد أم مـراد وبناتها.. ويسمع الجملة الأخيرة لشهربان وهي تخاطب أم مراد فـي غضب وانفعال)

علي باشا: ماذا يجري هنا؟

أم مراد: أرجوك يا علي باشا، أنت رجل منصف فكن حكما بينـي وبين ابنتك شهربان.. لقد فقدت إبني الوحيد وعمره لا يتجاوز الرابعة والثلاثين، فلا تحرمني من رعاية أبنائه يعوضونني عنه، ولا تلجئوني الى شيخ الإسلام يرد لي حقي في رعايتهم بعد موت والدهم (أم مراد تبكي.. شهربان تهز رأسها وتهمس لنفسها "عرفت الآن من يحرضك علي يا أم مراد")

علي باشا: أتركي لي هذا الأمر بضعة أيام أقنع فيه شهربان بوجهـة نظرك.. ليس سهلا على شهربان أن تفقد زوجها وأولادهـا فـي آن واحد..

أم مراد: أنتظر ردك يا علي باشا، وأعتمد على التزامك بالشرع الذي يعفي الإبن الوحيد من الخدمة العسكرية رحمة بالأم...

علي باشا: ليس فقط رحمة بالأم، ولكن حتى يدوم النسب في العائلة.. ولمراد أربعة أبناء ينتسبون الى عائلة مراد.. فنسبهم قائم ان عاشـوا في كنف الأم أو الأب.. وفي الشرع أن الأم تحضن أبناءهـا حتـى التاسعة ان حدث طلاق بينها وبين زوجها، أما في حالة الوفاة فالشرع يسمح لها باحتضانهم ان لم تتزوج، وكانت قادرة ماديا على إعـالتهم بميراث زوجها المتوفي.. أما في غير هذا الوضع، فالشرع يولي أمر الأحفاد لوالد الإبن المفقود وأمه رعاية لمصلحة الأولاد.. أما في حالة وفاة والد المتوفي فالشرع لا يلزم أمه برعاية أحفادها، وبالتالي لـيس لها حق شرعي في احتضانهم.. ان ما أريد أن أقنع به شهربان هـو أين تكمن مصلحة الأولاد، وليس بأن لك حقا شـرعيا فـي حـضانة أبنائها! (شهربان تتنفس الصعداء.. أم مراد تتراجع عـن إصـرارها السابق)

أم مراد: على كل حال انني أترك لك الخيار يا علي باشا، ولا أريـد أن أحتضن أولاد شهربان رغما عنهم وعن أمهـم.. (تـنهض تريـد الخروج هي وبناتها)
علي باشا: انك لا تعلمين يا أم مراد الرابطة الوثيقة التي تجمع أسرة مراد بعضها ببعض.. لقد تركها راحلا الى مصيره وهو مطمئن كـل الإطمئنان الى مصيرها، ومع هذا سآخذ بالإعتبـار مـصلحة الأولاد الدراسية ان كان خيرا لهم البقاء في استنبول أو الـسفر معنـا الـى بيروت.. (تخرج أم مراد ممتنة هي وبناتها.. يودعهن علي باشا حتى وصولهن الى العربة خارج القصر ويعود)
شهربان: لقد عرفت من كان يحرض أم مراد علي.. انه شيخ الإسلام الذي لا يزال يحقد علي!
علي باشا: يابنتي ان شيخ الإسلام له الباع الطويل في القصر فـان وصلت الأمور اليه فهو لن يحكم في صالحك، ولهذا أخذت أم مـراد بالحسنى..
شهربان: بعد الذي سمعته منك، لن أتنازل أبدا عن مرافقـة أولادي في سفري..
علي باشا: حين وصلتني رسالتك الأولى كنت أنوي أن أعـود الـى استنبول وأصطحبك والأولاد معي الى بيروت، ولكنني كنت قد التقيت بالشيخ يوسف الأسير فاستشرته في هذا الأمر، فحذرني أن أفعل هذا ولا تزال الحرب الروسية التركية قائمة لم تبرز نتائجها، لأن مغبـة فشلنا في المعركة مع الروس سيكون لها تأثير سيئ على الولايـات، فتنفجر فيها الفتن والأزمات مطالبة بالإستقلال عنا لتقع بالتالي تحـت رحمة المستعمرين الأجانب..
ولما وصلتني رسالتك الثانية جعلتني في هم مقيم، فلا أنـا قـادر أن أستقيل من عملي وأعود الى استنبول، ولا أنا قادر أن أغامر بمجيئك والأولاد عندي الى بيروت، والخطر فيها قائم من الفـتن مـع تقـدم الروس في معاركهم وخساراتنا في القرم وفي عـدد مـن ولاياتنـا الشرقية..
شهربان: هل تريد مني أن أترك أولادي الى أم مراد الجاهلة تربيهم لي؟
علي باشا: لست أعني هذا.. ان إقامتي في بيروت تنتهي مع انتهاء الحرب التركية الروسية الثانية.. وسأعود بعد عام أو عـامين الـى

استنبول.. ان جهل أم مراد للقراءة والكتابة لا ينفي حبها لهم وتفانيها في رعايتهم.. إعتبريهم في مدرسة داخلية.. أغلب سـفراء العـالم لا يصطحبون أولادهم معهم، ويتركونهم للأهل يقومون برعايتهم حتى لا يعيقوا دراستهم ويتخلفوا عن أقرانهم.. فأي أهـل يكونـون لأولادك خيرا من أم مراد وأخواته، في حنانهم ورعايتهم؟..

شهريان: (بانزعاج) وعلي! هل أتركه أيضا؟

علي باشا: لا تتركيه! وتستطيعين أن تأخذي سليمان أيضا لأنـه دون التاسعة.. أما اذا أردت رأيي فانني أرى أن من الأفضل لسليمان أن لا ينفصل عن أخويه لأنه يتخلف في دراسته عن أقرانه حين نعود الـى استنبول..

شهريان: وماذا نفعل في تدريس اللغة العربية وتدريب الفروسية؟

علي باشا: لن أجعلهم يتخلون عن أي شيء في غيابنا! سأذهب فـي الغد الى مالية الدولة لأجعل راتب مراد الجاري من حق أمه، وأشترط عليها أن يستمر خالد في إعطائهم دروس العربيـة، وأنقـل الخيـول الثلاثة الى منزل أم مراد، وأتفق مع مدربهم السابق أن يعـود الـى تدريبهم في المواعيد نفسها التي اعتادوا عليها، وأن تنقد خالد ومدرب الخيل أجورهما الشهرية من راتب مراد.. انني ذاهب لأرتب الأمور كما ينبغي، فهيئي أنت الأولاد نفسيا للبقاء مع جدتهم أم مراد، وهيئي حقائب ثيابهم لنقلها، وأخبريهم أن غيابنا عنهم لن يطول وسنعود قريبا اليهم..

* * *